المبحث الرابع

مـواقـف حضــاريـة

الطالب الذي لا يسمع صوته

أن تكون لديك الشجاعة لتستمع لرأي الآخرين فيك فهذا يعني أنك شخص جدير بالثقة، وأنك راغب في تنمية ذاتك، وفي تحسين أدائك، ويعني أيضاً أنك بريء من الإصابة بعقدة النقص التي تجعل المبتلين بها في حالة إعراض عن صوت الناصح، وفي موقف الرفض للإصغاء إلى أي ملاحظة أو توجيه أو نقد.

وعلى ضوء الدراسات النفسية فهناك علاقة بين كفاءة الإنسان المهنية وبين تمتعه بالثقة بالنفس، واستعداده لتدارك قصوره وأخطائه.

كما تحفز الدراسات التربوية المعلمين والمعلمات على أن ينظروا للطالب بكونه شريكا فاعلا في العملية التعليمية وليس طرفا مستهدفا بالتعليم فحسب!!

ولأن الرحلة التي يشارك فيها سنويا قطبا العملية التعليمية ليست رحلة عادية على الإطلاق، ولا يتوقف تأثيرها على اللحظة التي يستلم فيها الطالب شهادة نجاحه وانتقاله إلى سنة دراسية تالية فإن تفعيل العلاقة بين الطرفين يعد مطلبا حضاريا جديرا بالاعتماد.(*)

(*) هناك أربعة مجالات يمكن من خلالها قياس جودة أداء المعلم في البيئة المدرسية وهي على النحو التالي: "قدرات المجال الأول: التخطيط ومن أهم معاييره: =

هذه الرحلة الغنية والخصبة التي لها خصوصيتها وتميزها تستدعي أن يشحذ المعلم لإنجاح دوره فيها كافة قواه الذهنية والوجدانية لتظهر له أولا صورة علاقته بطلابه على طبيعتها وشكلها الواقعي، ثم ليعمل من جهة ثانية على تجاوز القصور أو الضعف الذي قد يشوب علاقته بطلابه، ويتسبب في حدوث شرخ أو حاجز يمنع من وصول توجيهات المعلم وآرائه إلى من يستهدفهم بالتعليم.

أفضل أسلوب لهذه التجربة التقييمية غير التقليدية مع الطلاب فاجأتني به مدرسة مادة كيمياء كانت إحدى المشاركات في برنامج تدريبي كنت قد قدمته للمعلمات حول مهارات التعامل مع الطالبات.

= تحديد الاحتياجات التعليمية للتلاميذ، التخطيط لأهداف كبرى وليس لمعلومات تفصيلية.

تصميم الأنشطة التعليمية الملائمة.

المجال الثانى: استراتيجيات التعلم وإدارة الفصل ومن أهم معاييره: استخدام استراتيجيات تعليمية استجابة لحاجات التلاميذ، تيسير خبرات التعلم الفاعل.

إشراك التلاميذ فى حل المشكلات، تدريبهم على التفكير الناقد والإبداعى، توفير مناخ ميسر للعدالة، الاستخدام الفاعل لأساليب متنوعة لإثارة دافعية المتعلمين، إدارة وقت التعلم بكفاءة والحد من الوقت الضائع.

المجال الثالث: المادة العلمية، ومن أهم معاييره التمكن من بنية المادة العلمية وفهم طبيعتها، التمكن من طرق البحث فى المادة العلمية، تمكن المعلم من تكامل مادته العلمية مع المواد الأخرى، القدرة على إنتاج المعرفة.

المجال الرابع: مجال التقويم ومن اهم معاييره التقويم الذاتى، تقويم التلاميذ، التغذية الراجعة.

لقد طلبت المعلمة الحديث عن تجربة غنية لها في هذا الشأن، وقد وجدت لصوتها حرارة، ولكلامها بريقاً جعلني أتحمس للإصغاء للتجربة التي أشعرتها بالسعادة، وحققت لها من النتائج الإيجابية ما فاقت توقعاتها.

لقد قامت هذه المعلمة بتوزيع استبيان استطلاعي حوى أسئلة مفتوحة للوقوف على رأي الطالبات في طريقة شرحها للمنهج الدراسي، وهل استطاعت أن تحببهن في مادة الكيمياء التي تتولى تدريسها أم أخفقت في ذلك؟ ولتتعرف على آرائهن حول طريقة معالجتها للمواقف الصفية، وإدارتها للحصة الدراسية؟.

لقد مكنتها تلك الوسيلة من توصيل رسالة للطالبات فحواها أن آراءهن مهمة لديها، وأنها تثمن أفكارهن وملاحظاتهن وتولي اقتراحاتهن مكانة خاصة.

أدركت هذه المربية الواعية أن أسلوب التعبير على الورق هو أسلوب جدير بالممارسة حيث لا تخدش صورة المعلم، ولا تمس هيبته بسوء، بل تضمن المساحة المكتوبة قدراً من الراحة النفسية للطرفين، حيث لا أسماء مكتوبة على الاستبيان، ولا درجات محسوبة أو منقوصة تخشاها الطالبات. بل هو حسن الظن ومنح الثقة وإعطاء الاهتمام لجيل يبحث عن ذاته، ويفتش عن مكانته ويتحسس خطواته القادمة من خلال نظرة مجتمعه إليه. هذه النظرة التي لها ما بعدها في وجدان الطالب وفي تصوره.

والسؤال هل هناك علاقة بين سلوك هذه المعلمة الإيجابي وحرصها على تحسين المناخ المحيط بالطالبات وبين التقليل من التدهور في سلوكيات الشباب؟

الرأي بأن ثمة علاقة قوية بين الأمرين، فلو حدث وتداعى المربون والمربيات لفتح مجال ليصغوا لأصوات طلبتهم وطالباتهم فلربما أسهم ذلك في تقليل السلوكيات السلبية، وما المانع في استجابة المربين لهذه الفكرة وهم الذين أكثروا القول وقد آن لهم أن يستمعوا ولو قليلا للطرف المستهدف بالخدمة التعليمية.

الأساتذة الرواد

شكلت الساعات المكتبية الجامعية إضافة عظيمة الأثر لفئة الطلبة والطالبات ممن بدؤوا يتحسسون دروبهم القادمة، ليرسموا دوائر التأثير الخاصة بهم والتي من شأنها أن تقدمهم للمجتمع كنماذج ملتزمة بأهدافه، ومرتبطة ببرامجه التنموية في تجويد مخرجات كافة شرائح المجتمع.

وإذا ما أسعف القدر تلك الكوكبة المتميزة من طلبة وطالبات الجامعة، ووضع في طريقهم أستاذاً له حضوره العلمي ومكانته الأدبية، وكان حريصا على تفعيل علاقته بأولئك الباحثين الجدد، فإن تحقق معادلة النجاح التعليمي يكون أمرا متوقعا وفي حكم الإنجاز.

لقد برع صفوة من الأساتذة في اكتشاف طاقات الطلاب وآمنوا بقدرتهم على دفع ضريبة التميز العلمي، فلم يبخلوا عليهم بوقت، أو بخبرة، أو مشورة، بل وضعوا ما لديهم من إمكانيات بين ايدي هواة البحث عن الجديد الذين واصلوا الدرب فأصبحوا بدورهم فرسان الحقيقة العلمية وأتباعها المخلصين.

وحيث إن المواد الدراسية لم تكن قادرة على إرواء ظمأ تلك النماذج المتميزة من الطلبة والطالبات فقد كان وجود نماذج علمية

متقدمة قادرة على سد الفجوة بين بساطة ما هو مكتوب في المواد الجامعية، وبين طموح أولئك الشباب المتحفزين للغد، هو حلقة الوصل التي شكلت إضافة حقيقية لتلك الفئة من الطلاب، وجعلت من سنوات الدراسة رحلة شائقة بها من مفاجآت البحث، وغزارة المعرفة ما يكفي لتحقيق أهداف كبرى في تلك السنوات القليلة العدد، العظيمة الثراء والنفع والخصب.

لقد نتج عن الاتصال الفاعل بين الأساتذة والطلاب وصول هواة البحث عن المعرفة إلى الاقتناع بأهمية تفعيل المسار العلمي في المحيط الاجتماعي بعد استلام شهادة التخرج من الجامعة خاصة وأن ملازمة البحث، وممارسة أسلوب الترجيح بين الآراء العلمية الذي استخدم سنوات الدراسة، استطاع أن يشحذ أذهانهم نحو احترام الطريقة العلمية، بل احتراف أسلوب التحليل والمقايسة والموازنة بين الأدلة لاختيار ما يطمئن إليه العقل، الأمر الذي أكسبهم الجدية، وسما بهم عن الاكتفاء بأدوار تقليدية تعتمد على ترديد أفكار العامة، والتغني بما تلوكه الألسنة.

إن أثمن درس تعلمه أولئك الجالسون بأدب في محراب العلم، الماثلون بين أيدي أساتذتهم وقد ألقوا لهم السمع، وأصغت جوارحهم لكنوز المعرفة هو أن تكوين رصيد معرفي يرضي الطموح لا يتحقق إلا بعد دفع الثمن المطلوب من الجهد والوقت والاهتمام.

صدى التميز

كان الباعث في الإصرار على توظيف الزمن الجامعي في الاتجاه الصحيح وجود صفوة من أساتذة الجامعة الذين خالفوا الصورة النمطية المرسومة في الأذهان عن المعلمين.

وقد كان لذلك الانقلاب في تصور الطلاب حول الأدوار الغائبة للمعلم التي حجبت عن الظهور في سنوات الدراسة النظامية، أثر رائع على معنوياتهم ونظرتهم للحياة.

فبينما فتح الأساتذة الجامعيون باب الحوار والنقاش كخطوة أولى أرادوا بها اختصار المسافة بينهم وبين الطلاب، وتدريبهم على الشجاعة الأدبية في التعريف بوجهة نظرهم الخاصة فيما يعرض عليهم من مواد مقررة، كانت الذاكرة تستدعي إلى الحضورتجارب التعليم ما قبل الجامعي، حيث التسليم المطلق بما يقوله المعلم الناقل لمفردات المقرر الدراسي دون زيادة أو نقصان.

نتج عن هذا الفراغ المعرفي شيوع مفاهيم مبتسرة حول الشخصية الطلابية المتميزة التي عرفت بأنها الأكثر قدرة على الحفظ والتكرار والتي تنقل في ورقة الإجابة صورة مطابقة لنصوص المقرر المدرسي كلمة كلمة!!

لقد كان من شأن أساليب تعويد الطالب على إبداء رأيه فيما يقرأ من نصوص أدبية تزخر بها الكتب المدرسية، أن تكسبه القدرة على نقد الأفكار والتعبير عن آرائه بحرية مطلقة، وما الجموع

المغيبة عن واقعها اليوم، الصامتة عن استخفاف البعض بقيم المجتمع إلا صدى للهشاشة في الرؤى التعليمية التي اتسمت بضيق الأفق.

إن الانكفاء على الذات، والعزوف عن المشاركة الاجتماعية، وانخفاض الطموح، وعدم الثقة بالنفس هي نتائج طبيعية لسنوات الصمت الطويل، وتكبيل الأفواه، ومنع الأقلام وقت الامتحان من كتابة أي معلومة تناقض ما هو مدون في المناهج الدراسية، أو تحتوي نقدا لفكرة في المنهاج رآى عكسها أحد الطلاب.

وفي ظل إلغاء مبدأ شراكة الطالب في رحلة التعليم تراجع مفهوم الذات لدى الشريحة الطلابية، وتراجعت معه القدرة على التعبير والدفاع عن الرأي، كما تم حصر وظيفة التعليم في نيل الشهادة الجامعية، والجلوس على أحد المكاتب، دون أن تتكون للذات صورة ذهنية أفضل يجهد صاحبها لتمثلها في مستقبل أيامه.

تباين في المنحنيات التعليمية

نعلم أن التشخيص جزء من الحل، كما نعلم أن اكتشاف الخلل مدعاة الى إصلاح الوضع الذي يظهر فيه ذلك الخلل.

وإذ نركز على الدور النوعي الخاص الذي يمثله بعض الأساتذة الجامعيين في تكوين البنية النفسية والفكرية القادرة على الارتقاء بشخصية الطلاب والطالبات، ففي الوقت نفسه نريد استنساخ

نجاحات التجربة الجامعية، وأنظمتها المواتية لتفعيل العلاقة العلمية بين الطالب في المدرسة وبين معلميه في مساحة أوسع، ومع شريحة من الطلاب والطالبات تفوق في عددها أمثالها من طلبة وطالبات الجامعة!!

ومن المؤسف ألاّ تسمح الأنظمة المدرسية الحالية بوجود مساحة من الوقت يمكن للطالب أن يلتقي خلالها بأساتذته في أجواء بعيدة عن رسميات الحصة المدرسية التي يستهلك وقتها بالكامل في شرح مفردات المقرر المدرسي.

لقد غاب عن وعي الإدارات المدرسية كما غاب عن وعي مشرعي النظام التعليمي خطأ النظرة الأحادية التي تعتمد على فلسفة تختزل أدوار المعلم في مهمة واحدة هي إنجاز المقرر الدراسي وفق الخطة الزمنية التي تستغرق في العادة عاما دراسيا كاملاً ولا تترك مساحة للإضافة أو التجديد ما يؤكد الحاجة إلى ثورة تصحيحية تعيد ترتيب الأولويات، وتعمل على إنجاز كافة الأهداف التعليمية التي كان الفشل حليفها لأكثر من خمسة عقود من عمر مجتمعاتنا العربية.

من أجل تكريس مبدأ «المقرر المدرسي أولاً وأخيراً» تعمل الإدارات العليا في وزارات التربية والتعليم في العالم العربي، ويعمل الموجهون الأوائل، ومن خلفهم موجهو المواد الدراسية، ومعهم المناطق التعليمية لإنجاز ذلك الشعار المرفوع الذي بدا وكأنه حلم

نهائي إذا ما تحقق ـ وهو يتحقق في كل عام ـ فإن بإمكان الجميع أن يستروحوا نسائم الأمل بعد طول عناء!!

لقد ركب المعلمون الموجة، وواصلوا شد الاحزمة وحبس الأنفاس التي بدت منهكة من كثرة مطالبتهم بالالتزام الحرفي بمفردات المقرر المدرسي دون زيادة أو تعليق!!

حتى إذا ما أدى أحدهم الواجب الذي طولب به آلاف المرات، وأنهى الدرس الأخير نهاية العام الدراسي رفع يديه إلى السماء شاكراً مبتهلاً على ما حققه من إنجاز لا يراوده الشك بأنه الإنجاز الأكبر والأهم في هذا الميدان الفسيح!!

ترتب على هذه السياسة القاصرة جملة من ردود الأفعال السلبية التي تمثلت في انخفاض عوائد المخرجات التعليمية على المستوى السلوكي والتحصيلي، وأكدت بما لا يدع مجالا للشك أن البيئة التعليمية أصبحت بيئة طاردة لا جاذبة لقطاع من الدارسين، الذين لم يعد يعجزهم أن يتسوروا جدران المدارس، أو يتسلقو النوافذ، ويهربوا من الأبواب الخلفية؛ ليتسكعوا في الأزقة والحواري معلنين مواصلة رحلة السقوط المريع، التي بدأتها أجيال عاشوا الظروف نفسها، وآل أمرهم إلى الانحراف!!

ففي مقابل شح الوقت عن سماع رسائل الجيل المتفرقة والمتناثرة والتي لا يجمعها خيط واحد، شحت العوائد والنتائج المترتبة على ذلك النوع من التعامل السطحي، وأصبح النقص في

الوقت المخصص للحوار مع الطلاب هو علامة بارزة على النقص في المعين التربوي الذي جف نهره عن الجريان، وتصحرت الحياة من حوله في ربيع العمر الذي سرقته الغفلة عن أولويات مرحلة البناء والتأسيس!!

تجارة بينية في مدرسة بنين

بدا العام الدراسي2002/ 2003م مميزا بالنسبة لطلبة المرحلة الإعدادية في إحدى مدارس البنين بدولة الإمارات العربية المتحدة.

وكان مصْدَرَ هذا التميز سلُوكٌ جَديدٌ لم تعتد عليه أجواء المدارس من قبل، صدر من مجموعة من الطلاب المتحفزين لقراءة القصص والروايات البوليسية، ممن صنعوا لهم طقوسا خاصة تحقق لهم شيئا من التسلية وتشبع لديهم الرغبة في اكتشاف الجديد، بعيداً عن الشجرة الإعلامية اليابسة الأوراق، والتي لم يرحل عنها الخريف منذ عدة عقود!!

يتمثل هذا السلوك الإيجابي في أن الروايات التي يحصل عليها الطالب «الزبون» إنما هي عارية مسترجعة مقابل مبلغ زهيد من المال، فالسلعة هنا لا تملّك، ولكنها للإيجار فقط مقابل نصف درهم يقبضه التاجر الصغير فيسمح لزميله باستعارة الرواية التي يمتلكها.

أصحاب هذه المبادرة يستحقون الشكر والتقدير، كما أن سلوكهم يدل على ظمئهم إلى القراءة، وتوقهم لتصفح الكتب بعد أن سئموا وضجروا من الجلوس والتسمر أمام حلقات سندريلا،

والبوكيمون، ومسلسل القناع، وغيرها من برامج الكرتون التي كررت عشرات المرات حتى حفظها الأطفال والمراهقون، ولم يعد بإمكانهم احتمال تلك الرتابة المملة..

لم يعد التلفاز قادراً على تلبية حاجاتهم العقلية، وظمئهم إلى اكتشاف المجهول،وتوقهم إلى أن يقفوا على الجديد، والممتع.

وقد وجدوا ضالتهم لدى الدكتور أحمد خالد توفيق من خلال إنتاجه الأدبي الممتع الذي أثرى به المكتبة العربية، وكسر الحاجز المصطنع بين التشويق والعرض المفيد، إذ حفلت كتاباته بمراعاة هذين البعدين، وجاد لنا قلمه الثر بسلسلة من الروايات التي صدر منها سلسلة ما وراء الطبيعة، وقد بلغ عدد كتبها حتى اللحظة 66 كتاباً،و هي تتحدث عن الظواهر الخارقة، وعلوم ما وراء الطبيعة.

كما أصدر الكاتب سلسلة فانتازيا، وصدر منها 32 كتابا في موضوعات ترتبط بالأدب العالمي، أو بالتاريخ العربي والغربي وسلسلة «سفاري» التي تحكي قصة فريق طبي يعمل لإنقاذ الشعوب الأفريقية الفقيرة من مضاعفات الأمراض الفتاكة، والشائعة في تلك الدول(*).

(*) تجاربي مع الترويج لسلسلة الروايات الخفيفة التي برع فيها الدكتور أحمد خالد توفيق تثير لدي كما من مشاعر الإحباط الذي أحاول جاهدة أن أتخلص منها عبر تكثيف كتاباتي حول هذه الفكرة كمدخل نموذجي في بناء الشخصية القارئة منذ مراحل التعليم الأساسي والإعدادي فالثانوي. =

والدكتور أحمد خالد توفيق، متخصص في مجال طب المناطق الحارة، وقد جمع في كتاباته بين الروح العلمية التي يتسم بها قلمه الرشيق، وبين طرافة العرض والتشويق في سرد الأحداث التي يمر بها أبطال رواياته في معادلة تفوقت على عنصر التحدي الكبير الذي يواجه كل كاتب يريد الإفادة وإثراء القراء دون أن يضحي بعنصر الإثارة والتشويق.

ومن خلال التجربة الشخصية توجهت إلى إحدى أكبر مكتبات التوزيع في دولة الإمارات العربية المتحدة، وسألت البائع عن سبب انتشار ظاهرة التعلق بهذا النوع من الروايات، فكان جوابه متفقا مع الرأي الذي أبديته آنفاً، وزاد على ذلك بأن عددا كبيرا من قراء هذه المجموعة من الروايات واظبوا على قراءتها رغم مرور السنوات وانتقالهم من المراهقة إلى سن النضج، خاصة وأن أعداداً جديدة لهذه المجموعات القصصية مازالت تتوالى، ومفاجآت الكاتب

= وإذ وجدت بعض العزاء في قرائي الذين يتابعون ما أكتب فإن فئة عريضة من المشتغلين بالتعليم ومعهم أولياء الأمور ما زالوا يتخبطون في فهم ابجديات تكوين القارئ النهم ما أوقع شريحة الطلبة والطالبات في أسر مفاهيم مغلوطة حول صعوبة التجديف في عالم الكتب الذي يحتاج لمجاديف قوية لا يملكونها .

إن التجارب العشوائية التي يقوم بها كثير من المعنيين بتربية الجيل تؤكد أننا في عالمنا العربي بحاجة ماسة لتصحيح المفاهيم حول أكفأ الأساليب في بناء الشخصية القارئة.

فالاعتماد على أفكار تقليدية ومعلومات ناقصة من قبل الكبار أوقع الصغار في حبائل الشك وأقصاهم عن دوائر التأثير في ميادين المطالعة وعليه فالاعتراف بالحاجة لاستكمال النقص حول هذه المعاني هو خيار إنقاذ نرجو له ألاّ يتاخر أكثر من ذلك.

مازالت تحرك أشواق القارئ وتثير فضوله لمواصلة الرحلة والعودة بمكاسب مختلفة منها الحصول على قدر جيد من المعلومات إضافة إلى الاستغراق في أحداث الرواية والشعور بالاندماج في تفاصيلها المثيرة. ويلح السؤال علينا من جديد هل ثمة رسالة أخرى تحملها هذه التجربة الطلابية؟ وهل يمكن أن يبادر المعلمون والمعلمات إلى إيجاد حلول عملية لهذه الفئة العمرية الواعدة؟ هذا ما نتمناه!!

من يقرأ هذه الرسائل ومن يرد عليها؟!!

الرسالة التي تحملها حركة تداول الكتب بين أيدي الطلبة تحمل العديد من المضامين والدلالات ذات الإيحاء الإيجابي.

منها ما أشرنا إليه من حالة الظمأ إلى المعرفة، والشوق إلى الاكتشاف والمغامرة ولو من خلال التجوال بين صفحات الروايات كنوع من الاجتهاد الشخصي في إيجاد بديل عملي يناسب حاجاتهم الخاصة، ويحاكي رغبتهم في الاستمتاع بوقتهم عن طريق بدا أكثر جاذبية وقدرة على تحقيق هذا المطلب العزيز.

وكما أسلفنا القول فإن جهاز التلفاز بدا وكأنه لا يعترف بوجود فئات عمرية متفاوتة بين جمهوره.

حيث تناسى المشرفون على تلك المحطات أن الأطفال الصغار قد كبروا، وأن نسبة كبيرة منهم قد ودعت مرحلة الطفولة، وخطت نحو مرحلة عمرية تتطلب نوعاً من البرامج التي تناسب أعمارهم، والتي كان ينبغي أن يحسب لها حساب خاص في خارطة البرامج التلفازية. ولكن ذلك الأمل ذهب أدراج الرياح حين ظلت مسلسلات ريمي، وزورو، والديجيتال تعرض على أنظار الشباب الصغار عاما بعد عام.

لقد نفض هذا الجيل يديه من التلفاز وهو يخطو خطواته الأولى نحو مرحلة أكثر نضجا ومسؤولية، ومضى يبحث له عن بديل آخر يستجيب لتطلعاته، وحاجاته الفطرية في الاستمتاع النظيف بشيء من اللهو والتسلية.

صاحب هذه الأوضاع تدفق البدائل الإلكترونية التي أخلت بتوازنه النفسي، وفرغت بيئته العقلية من مضامين معرفية كان في أمس الحاجة إليها.

ومن جديد فقد الناشئ قدرته على الاستمتاع بمساحة من الزمن تكون له لا عليه وتحسب في صالحه وليس العكس.

لقد كانت البدائل الجديدة من النوع الذي يأخذ ولا يعطي على الإطلاق.

حيث يأخذ الوقت والجهد، بينما لا يعود على المستخدم إلا بالإرهاق والتعب وتوتر الأعصاب.

لقد اقتحمت الألعاب الالكترونية على الناشيء الصغير حياته، وإن بدا للوهلة الأولى أنه هو من يسعى لشرائها وحيازتها بين يديه.

وبأسلوب الكائنات الرقمية نفسها في مسلسل أبطال الديجيتال، ينخلع الصغير عن أسرته ويرحل إلى عالم الأرقام ليفوز في النهاية بدرجة تحدد له مدى كفاءته في الاستغراق مع تلك اللعبة والانشغال بها عن سواها!!

الآثار السلبية للألعاب الإلكترونية لم تعد خافية على أحد، كما أن الناشئ الصغير بدأ يشعر من جديد أن شوقه إلى تجربة مثيرة يخوضها بنفسه، وتشبع رغبته في التعرف على شيء جديد لم ينطفئ بعد.

فالملل عاد مرة أخرى وفي ثوب جديد ليلف حياته، وسويعات اللعب مع الرفاق لم تعد تكفي لتشغله عن العديد من التساؤلات حول الحياة والأحياء من حوله.(*)

وفي محاولة تالية لصياغة بدائل أخرى تطرد الملل والشعور بالسأم لجأ بعض الفتية والفتيات إلى الكتاب كملاذ آمن يسرجون فيه بعض المصابيح الصغيرة التي تبعث النور في المكان، وتنشر الرؤية في المساحة المحيطة بهم.

(*) مما يثير الضحك المر إن صح هذا الوصف على حالنا هو ظاهرة الرفض التي رصدتها على سلوك المعلمات اللواتي حاولت جهدي أن أقنعهن في فترات زمنية متفاوتة بالمبادرة في تأسيس مكتبة صفية إذ اعتدت على أن يكون الرد هو التقليل من شأن الفكرة ولمبررات واهية منها أن الكتب سوف تسرق، تقطع، تنهب، ترمى على الأرض وتمزق، أو تختفي فلماذا الشراء؟ وبعثرة المال!!

إن السلامة أولى من هدر المال والسلامة- وفق منطق المعلمات -هي توفير الدراهم والقفز فوق فكرة تأسيس مكتبة صفية التي لن يأتي من ورائها إلا وجع الرأس لأن مضارها أكثر من نفعها !!

انتهى كلام المعلمات وبقي أن نحوقل ونسترجع وندعو الله أن يجعل غدنا مشرقا تأتي فيه دماء جديدة لميدان التعليم تؤمن إيمانا راسخا أن طالبا لا يطالع الكتب هو مشروع فاشل لأمة فقيرة في مواردها البشرية.

والذي نود أن نسجله في هذا الموقف هو أهمية الإسراع في تكوين مكتبة مستقلة لكل فصل دراسي تتكون من إسهامات الطلاب من الكتب المتوافرة في منازلهم، ويتم تداولها بإشراف احد المعلمين المتحمسين لهذه الفكرة لكي يفتح نافذة على الإبداع من خلال هذا الجهد البسيط.

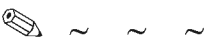

العقول الواعدة والهجرة الصعبة

من جديد يستلم العرب المبادرة ويسجلون رقماً جديداً في مباراة العقول بينهم وبين الباحثين والدارسين على مستوى العالم.

فقد فاز طالب مصري يدرس في المرحلة الثانوية بالمركز الأول على مستوى العالم في مسابقة تصميم المعلومات من خلال وادي السليكون بالولايات المتحدة الأميركية وذلك عام 2002 م.

والطالب المصري محمد علي عثمان كان العربي الوحيد من بين عشرين متسابقاً شاركوا في هذه المسابقة ويبلغ من العمر 15 عاماً. وقد حصل محمد على 85.2 درجة متقدماً على طالبة أميركية حازت على 85 درجة فقط.

يقول الخبر: إن شركة ميكروسوفت للمعلومات قررت أن تتحمل نفقات تعليم الطالب بجامعة واشنطن لمدة 8 سنوات وإقامته بالولايات المتحدة.

ليس الذي يثير الاهتمام في هذا الخبر تفوق الطالب العربي فقط، إنما الذي يثير الاهتمام في الخبر أيضاً هو هذه السرعة المكوكية التي تحرك بها بيل جيتس صاحب شركة ميكروسوفت العالمية لاحتضان الطالب ورعايته علمياً بشكل يقطع أي مجال

للشك في جدية القوم وحماسهم للفوز بكل العقول الواعدة، كما فازوا سلفاً بأغلب العقول السباقة والرائدة.

أي جدية هذه؟ وأي تشمير لدى تلك المؤسسات الجادة لتحقيق المزيد من المكاسب والإنجازات العلمية، وكأنهم في سباق دائم مع الزمن، وفي منافسة مستمرة مع أنفسهم قبل ان ينافسوا الآخرين.

إن كل تفوق تحققه مثل تلك المؤسسات السباقة يدفعها للمزيد والمزيد من تسجيل النقاط في هذا الميدان الذي لا يعرف إلا لغة واحدة ولا يتكلم إلا بصوت واحد مسموع هو صوت القوة العلمية، والنهضة المعرفية الشاملة التي يعد الذكاء البشري أحد أهم مواردها على الإطلاق(*).

وتاريخ استقطاب الغرب للعقول العربية تاريخ حافل بالمكاسب الكبرى لتلك الدول الصناعية المتقدمة، والخسائر الكبرى للدول العربية التي هاجر أبناؤها عنها طلباً للعلم، ثم لما وجدوا خصوبة تلك البيئات الجديدة واستعداداتها الهائلة لتلبية ظمئهم للبحث والدراسة استقروا في تلك الدول ولم يعد بينهم وبين أقطارهم إلا بعض الخيوط الرفيعة التي بها يتذكرون جذورهم الأولى.

من تلك الأسماء العربية التي تقيم بشكل دائم في القارة الأوروبية أو في الولايات المتحدة العالم العربي فاروق الباز الرائد

(*) لمعرفة المزيد من أسرار اندفاع المؤسسات الغربية نحو استقطاب العقول يمكن الرجوع لكتاب بيل غيتس إمبراطور عصر المعلوماتية، تأليف روبرت هللر، تعريب محمد حسن شموط، مكتبة العبيكان 1424هـ - 2004م.

في علم الفضاء والمشرف على تسيير المركبات الفضائية إلى سطح القمر. كذلك من الأسماء العربية اللامعة مجدي يعقوب جراح القلب البريطاني المصري الأصل، ومن العلماء البارزين في علم النبات مصطفى السيد الذي اكتشف أسرار عملية التمثيل الضوئي ويعيش في الولايات المتحدة.

وفي ميدان الهندسة المعمارية يبرز اسم زهاء حديد من العراق وتعيش في إنجلترا وفي الولايات المتحدة أيضاً تقيم أستاذة الفيزياء مها عاشور وتدرس في جامعة كاليفورنيا، وقد حققت شهرة عالمية بأبحاثها في الشفق القطبي وتسهم في أبحاث وكالة ناسا، كما يبرز في ميدان الاقتصاد اسم الخبير الاقتصادي الشهير سمير عبد الحليم ولي الله من مصر وهو يقيم حاليا في ألمانيا.

إن التهافت الذي تمارسه أكبر الجامعات العلمية في الدول الغربية على العقول الواعدة من أبناء الجنسيات المختلفة والتي من بينها الجنسيات العربية والإسلامية هو الذي يغري أولئك الطلبة بالبقاء وعدم العودة إلى أوطانهم حيث تجعل تلك العروض السخية من الطلبة الدارسين طلبة محظوظين تحيطهم الحفاوة ويشملهم الترحيب. فالعروض لإكمال المشروعات العلمية، وإتمام الأبحاث والدراسات الخاصة بالمتفوقين من الطلاب العرب وغير العرب تبدو جديرة بالقبول والاختيار، وكيف لا وهي تشتمل على دراسة مجانية وإقامة مجانية كذلك الأمر الذي يضمن لأولئك الطلاب المتفوقين ألا يضطروا لإراقة ماء وجوههم لأي أحد كائنا من كان

بعد أن فتحت تلك الجامعات والمؤسسات أبوابها للنوابغ والنخب العلمية.

والسؤال الذي يقرع الآذان أما آن الأوان لكي تعود الطيور المهاجرة إلى أوطانها أو على الأقل لوقف استنزاف المزيد من العقول التي إذا ما قررت الرحيل فإنها في الغالب لن تعود؟!!

سقراط الفيلسوف

في المدينة التي كان يعيش فيها الفيلسوف سقراط كان هناك صبي من أبناء المدينة شغف بالعلم والمعرفة، وامتلأ إعجابا بشخصية الفيلسوف سقراط وقرر أن يصبح مثله. فاستجمع شجاعته ومضى قاصدا الرجل الذائع الصيت يعرض لديه حاجته، ويطلب منه معرفة الطريقة التي يصل بها إلى المستوى الذي وصل إليه هذا الفيلسوف البارز.

ولأن سقراط كان قليل الكلام فقد آثر ألا يتكلم بل أن يوضح للصبي بالطريقة العملية وبالتجربة الحية الخطة التي يسأل عنها والإجابة التي ينتظرها منه.

أخذ الصبي إلى الشاطئ وخاض في الماء مباشرة بكل ملابسه ـ وكان سقراط يقوم بأشياء غريبة حين يحاول إثبات أمر ما ـ فما كان من الصبي إلا أن نفذ أمر سقراط بحذر وخاض في الماء حتى وصل إليه، حيث كان الماء إلى أسفل ذقنيهما.

ودون أن ينطق بكلمة، مد سقراط يده، ووضعها على كتف الصبي، ونظر بعمق إلى عيني تلميذه ثم ضغط على رأسه تحت الماء بكل ما أوتي من قوة!!

نشب صراع بين الرجل وطالبه يشبه الصراع ما بين الموت والحياة، وقبل أن يفقد الطالب حياته أطلق سقراط سراح أسيره، وأسرع الصبي إلى سطح الماء وهو ينشد الهواء، غير مصدق أنه قد عاد إلى الحياة من جديد!!

أخذ الصبي المتعب يتلفت يمنة ويسرة باحثا عن سقراط مصمما على الانتقام لنفسه من معلمه الذي أراد به السوء.

لكن ما أثار دهشته وحيرته أن سقراط كان ينتظر على الشاطئ، وعندما وصل الصبي إلى الرمال صاح غاضباً: «لماذا حاولت قتلي«؟! وبهدوء وسكينة رد سقراط عليه سؤالا بسؤال من عنده: «يا بني، عندما كنت تحت الماء غير واثق من أنك سترى الحياة مرة أخرى ما أكثر شيء كنت تريده في هذا العالم..؟!

فكر الصبي قليلا ثم أجاب بهدوء، وبما يتفق مع البديهة: «كنت أريد أن أتنفس» فتبسم سقراط، ونظر إلى تلميذه نظرة عميقة ثم قال: «آه، عندما ترغب في الحكمة والبصيرة رغبتك في التنفس، هنا ستحظى بالحكمة والبصيرة».

ترى هل حبست أنفاسك ـ أيها القارئ الكريم ـ وأنت تتأمل هذه التجربة القاسية التي وضع الفيلسوف سقراط تلميذه النجيب فيها؟ هل رأيت كيف صور المعلم القدير للطالب الجاد منزلة الحكمة أبلغ تصوير، وكيف أتاح له بالممارسة العملية فرصة لا يمكن أن تتكرر ـ رغم قسوتها الظاهرية ـ لاكتشاف ضريبة الوصول،

ومعرفة القيمة الحقيقية التي يتميز بها العلم دونا عن سائر الثروات والمواهب التي قد تتهيأ للإنسان في مراحل حياته المختلفة؟

لقد أتاح سقراط للصبي ولنا جميعا أن نواجه أنفسنا متجردين للحكمة ومتحيزين لها لنختبر نوايانا على أرض الواقع، ونتعرف على الثمن الذي سندفعه لنحوز الحكمة التي ندعي البحث عنها وقبل ذلك لنقف على مكانها في سلم الأولويات التي نفرغ لها الجهد والوقت ونحن طائعون مختارون؟

أين تقف المعرفة في خارطة البرنامج اليومي المزدحم بأشكال من الأنشطة المفتوحة والمتنوعة، وما الأدوات التي نطوعها لتحقيق هذه الغاية؟

إن الحقيقة التي يهرب منها الكثيرون هي أن أغلبنا يدعي وصلا بالمعرفة وشوقا إليها دون أن نأتي ببرهان على صحة هذا الادعاء الذي نصر عليه ونعلن عنه في كل مناسبة وحين!!

وكلنا يدعي أنه المخلص الغيور على عقله ووقته وعمله وأنه لا يألو جهدا في ان يكون يومه خيرا من أمسه وغده خيراً من يومه!!

كلنا يدعي أنه يثق بدور المعرفة في تجويد الحياة الإنسانية، وبقدرتها على إيصال صاحبها إلى القمة!

نحن نرفع الأيدي ـ طوعاً وبطيب خاطر ـ ونسلم لسقراط بأنه أبدع في الدرس العملي الذي قدمه لتلميذه النجيب، وأن الاختبار

الصعب ـ رغم قسوته الظاهرية ـ وضع الطالب الشغوف بالعلم والتحصيل أمام المنعطف الحقيقي الذي يفصل ما بين الادعاء الكاذب والرغبة الصادقة!!

وكلنا يحييه على إخلاصه للعلم حين قرن بينه وبين الهواء وأوحى لتلميذه بأنه لن ينال الحكمة إلا إذا أصبحت حاجته للعلم تماثل حاجته للهواء.

لكن الثابت أن مقولة سقراط قد قطعت الطريق على المدعين الذين يجيدون القول، ويمتنعون عن العمل، وقدمت بكل أمانة وصفة شافية للنابهين وكشفت الدرب من أوله إلى منتهاه في عبارة لا تحتمل إلا تفسيراً واحداً لا ثاني له. فليس الصادق من يقطع حباله من التجربة الأولى لكنه الذي يواصل دون ضجر أو شكوى.

وكلما ازداد عدد المحاولات ازدادت التجارب غنى وثراء وقيمة، وأتيح للإنسان المزيد من الكنوز التي تمتنع عن سواه.

ترى أليس هذا هو الإنصاف والعدل والحيدة؟

بلى.. وقد صدقت الأيام فراسة سقراط وأيدت حكمته الخالدة.

من ملفنا الحضاري

حين تقلب صفحات التاريخ، وتستحث الذاكرة لتعود بك إلى حيث العظمة في الأهداف، والروعة في الأداء، ينكشف لك ماض تتمنى لو عاد بزخمه وحيويته وانسيابيته التي حقق من خلالها أعلى درجات التوحد والاتصال بين الفكر والسلوك، وبين المعتقد والأداء.

حدثت تلك الثورة العلمية والنهضة الحضارية في وقت كانت فيه أمم الأرض تتخبط في حبال الوهم، وتتقاذفها الصراعات المذهبية، والاضطرابات السياسية التي طوّحت بعروش، وأثارت الفوضى فكانت الحضارة الإسلامية وحدها هي التاج المتلألئ بالنور الذي أفسح المجال لرؤية جديدة يكون فيها مستقبل الإنسان أكثر ازدهاراً من الأزمنة التي سبقته.

اللافت للنظر تلك السرعة في تنفيذ مهمات الريادة الحضارية، وذلك التوافق والانسجام مع متطلبات النهضة الشاملة دون وجود منافس أو مزاحم من شأنه أن يكون محركاً خارجياً يستحث خطوات السير لهذه الأمة في درب الإنجاز وطريق التقدم.

من أجل تقريب الصورة للوضع الذي كان عليه المجتمع الإسلامي مقارنة بأوضاع الغربيين نأخذ شاهداً واحداً من شواهد

تفوق الحصر على عظمة تلك الروح، وعلى تألق الإنسان في تلك الحقبة الفريدة من الزمن.

والشاهد الذي نورده كأحد الأدلة على ذلك العصر المضيء هو الوزير الأديب العالم الصاحب بن عباد الذي أوردت عنه كتب التراجم والسير أن نوح بن منصور الساماني صاحب خراسان أرسل إليه يسأله القدوم عليه، فرد عليه قائلاً: «عندي من كتب العلم ما تحمل على أربعمئة جمل أو أكثر» كما أثر عنه قوله «أحتاج إلى ستين جملاً أنقل عليها كتب اللغة التي عندي».

وحتى يستطيع القارئ تصور هذه الثروة العلمية التي لا تقدر بمال أستشهد بمقولة (ديورانت) في كتابه الشهير الذي نقله إلى العربية محمد بدران، حيث قال: «كان يملك ـ أي الصاحب بن عباد ـ في القرن العاشر الميلادي مجموعة من الكتب، كانت تقدر بما يعادل كل مكتبات أوروبا مجتمعة».(*)

(*) ولد إسماعيل بن عباد في "اصطخر" في (16 من ذي القعدة 326 هـ = 14 من أكتوبر 938م)، وكان أبوه كاتبًا ماهرًا، ولي الوزارة لركن الدولة البويهي، وقبل أن يكون وزيرا كان من أهل العلم والفضل، سمع من علماء بغداد وأصفهان والري، وروى عنه جماعة من العلماء، وعني بتربية ابنه، وتعهده بالتعليم والتثقيف؛ حتى يكون كاتبا مثله، يتصل ببلاط الملوك، ويخلفه في الوزارة.

اتصل إسماعيل بن عباد بأبي الفضل بن العميد الوزير المعروف، وتتلمذ على يديه، وتدرب على طريقته في الكتابة والقيام بأعمال الوزارة، وكان دائم الصحبة له حتى لُقِّب بالصاحب، كما تتلمذ على يد العالم الكبير أبي الحسين أحمد بن فارس، المتوفى سنة (375هـ = 985م)، وتوثقت بينهما أسباب الصلة والمودة، حتى إن ابن فارس لمّا ألّف كتابه في فقه اللغة أطلق عليه لقب تلميذه، فسماه =

ومن الشواهد والأدلة على المسافة الهائلة التي كانت تفصل بين الحضارة الإسلامية وبين واقع الحركة العلمية في الغرب ما ذكره الدكتور زكي محسن من أن الجامعات الأوروبية (اكسفورد وكمبردج) لم تعرف نظام المكتبات إلا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، حتى إن هذا العصر يسمى في أوروبا (عصر إنشاء المكتبات).

أما قبل ذلك فقد كانت توجد المخطوطات في بعض الكنائس في أدراج مثبتة بسلاسل خشية مداهمة اللصوص.

وكما سبق إنشاء المكتبات في العالم العربي والإسلامي حركة النهضة الأوروبية، فإنه سبق كذلك اكتشاف العالم الجديد (الأميركتين) حيث أنشئت مكتبة هارفاردويل بالولايات المتحدة 1963م متأخرة بذلك عشرات القرون عن العالم الاسلامي الذي بدأ نظام المكتبات به منذ عهد عبدالملك بن مروان، وبلغ أوجه في عهد الدولة العباسية، وخاصة في عهدي الرشيد والمأمون.

= الصاحبي، وأهداه إليه بعدما أصبح وزيرًا معروفًا. (أحمد تمام موقع إسلام أون لاين

http://www.islam-online.net/Arabic/history/1422/05 article07.shtml

من أجل الوقوف على سيرة ابن عباد موسعة يمكن الرجوع الى:

- ابن خلكان (أحمد بن محمد) - وفيات الأعيان - تحقيق إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - بدون تاريخ.
- الثعالبي (عبد الملك بن محمد - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - دار الكتب العلمية - بيروت 1403) ?هـ = 1983م).

وقد يختصر مشوار التقصي والبحث في موضوع عرض المفارقة بين واقع الحضارة الإسلامية وما يقابلها في الحضارة الغربية أثناء العصور الوسطى أن نستدعي هذا المشهد المأساوي ونعيد عرضه من جديد كشاهد على الإغراق في البربرية والجهل التي وصل إليها الغربيون.

إذ تذكر كتب التاريخ أن الكاردينال (شيمتر) أمر بإحراق ثمانين ألف كتاب في ساحات غرناطة، وظل الحقد الأسود يلاحقهم حتى أفنوا حسب المؤرخ (ربلس) ألف ألف وخمسة آلاف مجلد كلها خطتها أقلام المسلمين (مليون وخمسة آلاف).

وفي شاهد آخر على مدى الجهل المطبق الذي خيّم على الغربيين في ذلك العصر يذكر فيصل عبدالله العسكري في كتابه القيم (الكتاب في التراث العربي) ما فعله الغربيون سنة 1671 في السفن الثلاث التي كانت متجهة إلى سلطان مراكش واستولى عليها البرابرة الإفرنج ـ بحسب تعبير العرب في ذلك الوقت ـ وألقوا بحمولتها من الكتب في قصر (الاسكوريال) لتلعب بها النيران وتأكل ثلاثة أرباعها، ولم يفيقوا من حماقتهم إلا حين لم يتبق إلا الربع الأخير منها حيث توقفوا عن إكمال جريمتهم وفوضوا إلى ميخائيل الطرابلسي ترتيبها وكتابة أسمائها فأحصى لهم أسماء 1851 كتاباً.

وليس هذا سوى نموذج مصغر على البدائية والتخلف التي كان عليها من تصالحوا مع العلم في نهاية المطاف، وتبرؤوا من ذلك التراث الأسود لتنقلب الصورة من جديد، ولكن في الاتجاه المعاكس.

كلمة السيدة سوزان مبارك حول مشروع مكتبة الأسرة

منذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافي كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافي الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، و طالبوا باستمراره طوال العام. و استجبنا لهذا المطلب الجماهيري العزيز إيماناً منا بأهمية الكتاب و بالكلمة الجادة العميقة التي يحتويها في إعادة صياغة و تشكيل وجدان الأمة و استعادة دورها الحضاري العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت "مكتبة الأسرة" أن تعيد الروح إلي الكتاب مصدراً مهماً و خالداً للثقافة في زمن البهارات التكنولوجية المعاصرة.. حيث أصدرت مكتبة الأسرة خلال 10 سنوات ما يزيد عن 2875 عنواناً في أكثر من 30 مليون نسخة تحتضنها الأسرة المصرية في عيونها و عقولها زاداً و تراثاً لا يبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة..

و مازلت أحلم بكتاب لكل مواطن و مكتبة في كل بيت.

السيدة سوزن مبارك

حرم رئيس جمهورية مصر العربية

أجواء تربوية واعدة

في مقابل التربية غير المؤسسة على الحوار والإقناع، تأتي التربية المنهجية التي تعنى بتكوين القناعات لتكون هي الخيار الرابح لجموع الآباء والأمهات ممن وثقوا بالأثر الهائل الذي تصنعه القناعات في نفوس أصحابها.

إن قوة الأخلاق تنبع من قوة الاقتناع وليس من سبيل إلى نقلها للناشئة إلا بفتح نافذة على الحوار لمناقشة أبرز القضايا المتعلقة بشؤون الجيل أملا في تحقيق مواءمة بين تطلعات الشباب ونبض الواقع بكل ملامحه ومفرداته والتي تبدو متنافرة إلى حد توقع استحالة تنفيذ الأهداف وسط فوضى القيم.

العبور الآمن بالأبناء إلى مرافئ أكثر دفئا وأجدر بالاختيار يحتاج لعمق في الرؤية، وأصالة في فهم الوظيفة التي يؤديها النقاش الأسري المؤسس على حوار ينطلق من ثوابت الأمة، ويهدف إلى تعميق احترامها في نفوس الجيل الجديد.

إن من الصعوبة بمكان أن يتصور المرء مرور السنوات، وتتابع التجارب الكثيرة والمختلفة التي يمر بها الجيل الجديد، ولا تصاحبها رعاية أبوية مباشرة تعمل على تدعيم القيم الأخلاقية في نفوسهم، وعلى تهذيب مشاعرهم ورفع مستوى المقاومة الداخلية

للنشء الجديد عبر العمل على تكوين القناعات، وإيجاد أرضية معرفية قوية تعرفهم بالصواب من الخطأ فيما يجري على مسرح الحياة من عروض تتفاوت بين الجدية والعبث، والجدوى والتخريب!!

من الثابت أن قوة الأفكار التي يمكن أن يعرضها الآباء على أبنائهم يحددها مستواهم الثقافي وقدرتهم على انتقاء الأسلوب الذي يتناسب مع مرحلة الأبناء العمرية، وطريقة تقديم تلك الأفكار لتتسرب إلى عقولهم بتلقائية ودون تعنت أو إكراه.(*)

أن تكون المفاهيم التي يتبناها الأبوان صحيحة فهذا لا يكفي لانتقالها لأبنائهم، إنما يحدد إمكانية النجاح أو الفشل في هذه المسألة وسائل عرض الأفكار وطرق تحليلها وشرح أبعادها وآثارها الحياتية.

وفي حياتنا اليومية العشرات من الشواهد التي تؤكد أن جمال العرض هو الطريق الأسهل للانجذاب نحو الشيء المعروض، فإذا كانت العين تتأثر بجمال الشكل الخارجي، فما بالك بالعقل والمشاعر والعاطفة التي لا تتجاوب بطبيعتها إلا مع الذوق، واللطف، وجودة العبارة، وسلاسة الفكرة، إلى جانب الحضور الخاص لشخصية الوسيط الذي ينقل تلك الأفكار، ويعمل على إقناع الآخرين بها.

(*) للوقوف على وسائل تفعيل الرسائل اللفظية والمرئية بين الأطراف المختلفة، راجع: معوقات الاتصال/ د. حسن سفنجة. http://www.annajah.net

كما أن علم النفس يؤكد على أهمية إيجاد رابطة نفسية قبل أن يبدأ الإنسان بعرض ما لديه من أفكار، والمقولة الشهيرة في ذلك: «إن الناس يأخذونك على حسب مشاعرهم، ثم يبررون أحكامهم بعقولهم».

مثل هذه القاعدة النفسية الخطيرة ينبغي أن يلتفت إليها كل مربٍّ لديه رسالة يريد أن تصل إلى من يعتني بتربيتهم، فلو أخفق في كسب عواطفهم فإن رسالته سيكون مصيرها الرفض القطعي دون شك.

ومما يعزز من قوة ارتباط الأبناء بالآباء إشاعة أجواء من المرح والدعابة أثناء الجلسات الأسرية وتعزيز الشعور لدى كل ابن بأنه مميز لدى أبويه، إلى جانب منحه الثقة بقدرته على مواجهة الحياة دون أن تتزلق قدماه في الخطأ أو الرذيلة.

كما أن الاستمرار في تغذيته بالمعلومات المقروءة والمسموعة والمرئية من شأنه أن يشكل حصانة فكرية جيدة تضاعف من شعوره بالتميز، وتملأ روحه بالإيمان بقدرته على أن يكون نموذجاً رائعاً للشخصية المتوازنة التي تعرف كيف تختار أهدافها في الحياة، وكيف ترسم خطواتها دون أن تخترق الخطوط الحمراء، أو تأتي بما تخجل منه في يوم من الأيام(*).

(*) حول موضوع الذكاء العاطفي ننصح بقراءة الذكاء العاطفي / أ . العنود بنت عبدالرحمن المطرف. www.nafsany.com

بعيداً عن العنف

«أنهى الرئيس الفرنسي المقابلة بتفحص مجموعة أو مجموعتي الأوراق الملقاة على مكتبه باهتمام، وكأنه قد وُضِع بينهما بطريق الخطأ شيء بالغ الأهمية».

جاءت هذه العبارة على لسان ديك فلوبيجان، ويعمل كاتبا بمجلة خاصة بأخبار التلفزيون، وقد أضاف على تلك العبارة قوله: كان ذلك بعد انصراف أحد معاونيه، فجأة التقط الرئيس سماعة الهاتف، وأدار مقعده ليكون في مواجهة النافذة. لقد كنت منذ دقيقة أجري حواراً تاريخياً، وأصبحت بعد لحظة في عداد الماضي.

إن النتيجة التي توصل إليها الكاتب «ديك» كانت نتيجة صحيحة بنسبة 100٪، ذلك أن الرئيس الفرنسي استخدم الإشارة الرمزية ليقول له بلغة الجسد لقد انتهت المقابلة!! والصحيح أن لغة الجسد هي أصدق الإشارات التي يلتقطها الطرف المقابل، وهي وحدها القادرة على التعبير عن مشاعره الحقيقية بعيداً عن التستر وراء أقنعة الحديث الزائف، لأن الكلمات في حالات عديدة تؤدي عملها بكفاءة أقل من كفاءة حركات الجسم، وتعابير الوجه التي يصعب على الفرد أن يتحكم فيها في أغلب الحالات!! ولقد اشتغل علماء كثيرون، وباحثون نفسيون بدراسة نسبة تأثير لغة الجسم بين

نسب التواصل الإنساني، وتوصلوا إلى نتائج مهمة يمكن توظيفها في اتجاه نمو العلاقات الاجتماعية بعيدا عن الوسائل اللفظية التي عادة ما تكون وسائط شديدة الوضوح إلى الدرجة التي قد تفسد ما بين الأفراد، حين يختار صاحبها اللغة الانفعالية المتشنجة المصحوبة بكلمات ديناميتية يعجز بعدها الإنسان أن يداوي ما أثخن من جراح القول، أو يصلح ما أفسد من المشاعر والأحاسيس!! فلقد استحوذت إشارات الجسم وتعابير الوجه على نسبة 55٪، واستأثرت النبرات الصوتية على نسبة 38٪ من التأثير على السامع، وجاءت الألفاظ في المرتبة الثالثة بنسبة 7٪ فقط من درجة تأثير الرسائل التعبيرية التي يبعثها الفرد للآخرين.

من المؤسف أن عدداً كبيراً من الناس وعلى رأسهم الآباء والأمهات قد عطلوا أو همشوا دور هذه الوسائط الأمينة في إنجاز مهمات تربوية فائقة القيمة دونما أي حاجة إلى استنزاف العواطف، أو استهلاك المشاعر في معارك كلامية كثيراً ما نبرع فيها كأمة تجيد الحديث أكثر من أي شيء آخر!! وبينما يستصحب الحكماء من المربين الواسطة الأكثر قدرة على إنجاح مهمتهم الأبوية بكفاءة، وبأقل الآثار السلبية التي قد تصاحب حالات التأديب والتوبيخ، ولفت انتباه الأبناء أو البنات إلى أخطاء صادرة منهم، يصر المستعجلون من الآباء والأمهات على استخدام عصا الكلمات الغليظة، وسوط الألفاظ النابية ليعالجوا موقفاً بسيطاً لا يحتاج

لأكثر من نظرة صارمة تقول للمخطئ قف مكانك، والتزم حدود الأدب، ولا تخترق النظام والقواعد الأخلاقية.

نعم، يمكن للنظرة المصوبة بإحكام إلى عيني طفل مشاكس أو مراهق صعب المراس أن تفعل الكثير دونما حاجة إلى جرح مشاعره أو الدخول معه في صراع غير متكافئ.

إذ إن كفة القوة المادية في أيدي الآباء والأمهات هو ما يعرض الولد أو البنت أطفالاً كانوا أم مراهقين إلى الشعور بالضآلة والضعف أمام سلطان الأب وسطوة الأم، والكلمات النارية التي تطلق من عقالها إلى غير هدف معلوم إلا استفزاز مشاعر ذلك الذي بدر منه السلوك الشائن، وإضعاف معنوياته.

مما قد يكرس لديه حالة من التقويم السلبي لإمكاناته وقدراته الخاصة، ويصيبه بشكوك مختلفة في درجة تقبل أبويه له إذا ما استمر الحال بين الطرفين يمضي على هذه الوتيرة، كلما بدر من الابن أو البنت نوع من التقصير!! ويمكن للعبة شد الحبل هذه أن تستمر إلى أن تخور قوى ذلك المتجاوز للحدود الحمراء، الذي شاء له حظه أن يكون ابنا لأسرة لا تؤمن بقول الشاعر الأديب:

تكفي اللبيب إشارة مرموزة

وسواه يدعى بالنداء العالي

وإننا لكي نربي الذوق في أبنائنا وبناتنا، والشعور المرهف تجاه الأخطاء، والحساسية المتناهية تجاه ارتكابها علينا أن نستخدم لغة

الجسم بذكاء وإيجابية وتحفظ شديد، من خلال لجم جماح اللسان الهادر الذي يمثل لدى الكثيرين حصانا جموحاً لا يستأنس أو يروض أو يلين!!

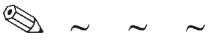

والوقاية خير

دعوة مفتوحة أرفعها للمسؤولين والغيورين على مصلحة هذا الجيل لدراسة السبل الكفيلة بحماية الفتيات من البيئة الاجتماعية التي أخذت في التلوث التدريجي والمتسارع نحو إحداث تغير في سلم القيم، على نحو ينذر بحدوث كارثة خلقية إن لم يتم التدخل السريع الناجح القادر على إصلاح تلك البيئة، وإعادة تشكيل مفاهيم الفئة المتحفزة لارتكاب الخطأ بما ينسجم مع قواعد الأخلاق، ويتوافق مع الأعراف السائدة.

ومن المؤسف أن التراجع على المستوى القيمي والأخلاقي صار ملحوظاً بل ومألوفا، وتشهد عليه عشرات الدلائل والقرائن التي تؤكد حدوث انتهاك صريح للخطوط الحمراء، واختراق منظم لقواعد الأدب والحشمة في بعض الحالات، وعشوائي في أغلب الحالات، على صورة لم تعد تسمح باعتبار تلك الممارسات مرضا سلوكيا طارئا لا يستدعي الكثير من القلق، إنما تحمل في طياتها أعراض مرض عضال قادر على الفتك بمستقبل كل فتاة لديها الاستعداد والقابلية للسير في ذلك الطريق الملغوم!!

وقد أودعتنا التجربة الإنسانية، وقبلها التعاليم السماوية حكمة مفادها أن الوقاية أصل، والحماية مبدأ، وإذا ما وقع

الانفلات، فإن العلاج يأتي كمرحلة متأخرة ليس بعدها إلا العقاب، وهو أمر ينبغي تجنب حدوثه لما ينتج عنه من أخطار تهدد مستقبل الفتاة.

الملاحظ في هذا الشأن انطفاء الشعور بالحماس وقلة الاكتراث من قبل المؤسسات الرسمية والأهلية وقنوات التأثير وتشكيل الرأي العام للتصدي لهذه الأزمة الأخلاقية، واستلام دور محوري في التخفيف من حدتها، والسيطرة على آثارها الجانبية.

ولقد تنوعت أسباب الفتور في التصدي لذلك الموضوع الأزمة، إما لحيرة في طريقة تناوله، أو فزع من نتائج الاشتغال به، وتركيز الجهود عليه، أو شعور باليأس من جدوى التعرض له، أو تقليل من شأن النتائج المترتبة على ظهوره في المجتمع.

وفي تقديري الخاص أن اقتحام الموضوع هو الخطوة الأولى على طريق المواجهة مع تلك الاختراقات المرفوضة، إلا أن الدخول في الموضوع يتطلب قدراً من الحذر، ومزيداً من الحيطة، خشية من انفلات القلم أو شطط الفكر أو القصور في المعالجة، أو التجزيء في تناول الموضوع الذي قد يصل إلى اقتراح حلول ترقيعية لا تستطيع أن تحمي الفتيات من الانحراف، أو تعيد إليهن التوازن النفسي والانفعالي الذي فقدنه في ظروف غير عادية، وفي تنشئة أسرية ومدرسية مرتبكة عاجزة عن الوفاء بمتطلبات بناء الإنسان!!

ومن الثابت أن سياسة الترقيع لا تصلح لأي مشروع هدفه النهائي الإنسان، كيانا وسلوكاً.

لقد جاءت محاولات كثيرة لتقديم رؤية حول أسباب انحراف الفتيات، وطرق العلاج والخلاص من أزمة ضياع الذات التي تعاني منها تلك الفئة من فتيات الجيل الجديد.

فجاء التشخيص سليما،وأحاط بالظروف التي قد تؤدي إلى السلوك السلبي من قبلهن بينما جاء العلاج قاصراً عن الوفاء بذلك الهدف البعيد، الأمر الذي يدفع باتجاه التفكير بحلول شاملة تأتي متوافقة مع متطلبات النجاح في مهمة إصلاح البنية الفكرية والوجدانية والقيمية للفتيات المتهيئات للسلوك السلبي عن طريق المعالجة الحكيمة وليس الاصطدام، والمواجهة المباشرة.

ومن الغريب حقاً أن نرى الإدارات المدرسية على أهبة الاستعداد في أغلب الحالات للقيام بدور المحقق الذكي والقاضي الذي يجيد إسناد التهم، وإصدار القرارات بالإدانة، ثم بالفصل المؤقت أو النهائي عن المدرسة إذا ما بدر من الفتاة استخفاف بالقوانين الأخلاقية، والنظم السائدة.

وإذا كان البعض يعتقدون بأنهم بهذه الوسيلة قد قضوا على المشكلة قضاء نهائيا، فإننا نؤكد لهم أن ما فعلوه لا يتجاوز مجرد التنحية والإقصاء للفتاة التي تسببت في المشكلة عن البيئة المدرسية، دون أن يحظى سلوكها بأدنى اهتمام من قبل من اتخذ قرار الفصل.

وهنا ينتقل التفكير التقليدي إلى اتهام مؤسسات أخرى بالتقصير والفشل في تهذيب سلوك الطالبة كالأسرة التي تنتمي إليها، أو وسائل الإعلام التي اختارت لنفسها القيام بدور تخريبي لافت!!

مفاد الرسالة لجمهور المنظرين للمشكلة، المشخصين للعوامل التي أدت إلى تخبط سلوك بعض الفتيات هو الدعوة لعدم الاكتفاء بهذا الدور النقدي الشديد الوضوح بل لا بد من الانتقال إلى وصف الحلول، وتحديد خطوات العمل هذا إذا كانت هناك جدية في المعالجة وتدارك الخلل!!

الشعور بالمسؤولية المشتركة... طوق النجاة

إن من واجبنا كأمة تخشى أن يؤتى من قبلها وأن تهدم حصونها من الداخل أن نبحث في كيفية الحد من انتشار ظاهرة اختراق الفتيات لمنظومة القيم الأخلاقية وذلك من أجل حماية الفتاة من نفسها، وإعادة تأهيلها نفسياً وفكرياً ووجدانياً ما يهيئ لصياغة شخصية أكثر تماسكاً، وأكثر وعياً لأبعاد السلوك السلبي، وقدرة على اتخاذ مواقف إيجابية في الحياة.

وحتى يمكن الوصول إلى قدر من النجاح في هذا الهدف هناك شروط ينبغي الوفاء بها، والتحقق من توافرها بنسبة مرضية. منها تقوية خطوط الاتصال بين المدارس والبيوت ومؤسسات الرعاية

الاجتماعية والجمعيات النسائية، وأندية الفتيات، والمؤسسات الأخرى التي لها ارتباط بقضايا الجيل، من أجل تدعيم البرامج الموجهة لإنجاز هذا الهدف على أرض الواقع.

ولو يممنا وجوهنا شطر هذه القنوات الاجتماعية فسوف نقف على حالة من القصور في استيعاب حاجات الفتيات، أو في استقطاب هذه الفئة المثيرة للقلق على وجه الخصوص.

ومن الأهمية بمكان أن نلفت الانتباه إلى أن الأدوار الحالية لتلك المؤسسات مازالت تسير بخطوات متأنية ووئيدة ولا تتناسب مع إيقاع العصر الشديد السرعة، ولا مع ما يواكبه من انفتاح شامل، أضعف الخطوط الدفاعية لدى الشريحة المحرومة من التنشئة الأسرية والاجتماعية الصحيحة، وجعلهن في مهب ريح التغيير التي طرقت بشدة على العقول والمشاعر، وأحدثت هرولة في اتجاه كسر الحواجز والحدود، والذهاب إلى أبعد مدى في رحلة ملغومة مع النقال ورسائله المجهولة والمعلومة المصدر، والإنترنت وحواراته الممنوعة، ومع وسوسة الأقران من الجنسين حيث تنقلب الأوهام إلى حقائق، وتصعب الرؤية حتى تحت مواطئ الأقدام.

كان ذلك الوضع الحرج كافيا لأن يتنادى الغيورون لإصلاحه، ولكن قنوات التوجيه والرعاية ـ مع الأسف الشديد ـ لم تمثل عوائدها التربوية -حتى اللحظة- ما يحقق للفتيات التوازن النفسي، ويحميهن من التحديات المختلفة.

فالاكتفاء بالمحاضرات والندوات، واستعراض البرامج الروتينية من دورات مهارية وفنية لم يعد كافيا على الإطلاق لمعالجة تلك الاختناقات على الصعيد القيمي.

كما أنه لم يعد يجسد إلا نمطاً من العمل الذي يتواءم مع احتياجات الفتيات المحظوظات ممن يتمتعن بصحة نفسية، ورغبة في اكتساب نوع من المعرفة أو الخبرة.

أما سائر الفتيات، وبالأخص ممن فقدن التمييز لمعرفة الصواب من الخطأ فهؤلاء لسن معنيات بأن يذهبن إلى تلك البرامج، لأنهن في واد، وتلك الأنشطة في واد آخر.

ولقد لمست من خلال مقابلاتي العديدة مع المسؤولات في الجمعيات النسائية، والقنوات الأخرى المعنية بشؤون الفتيات بأنهن يشاطرنني الرأي، بأن ثمة فجوة واسعة بين احتياجات شريحة معينة من الفتيات وبين الأنشطة العامة التي باتت معروفة لدى الجميع ما يدفعني لأن أستأذن القارئ وكل مهتم وغيور على مصلحة هذا المجتمع بأن يتصوروا حجم الانعكاسات السلبية لأزمة غياب الدور التوجيهي والوقائي، وكذلك الدور العلاجي لأغلب المؤسسات المعنية بقضايا الجيل أو قضايا الأسرة.

إن ما نرجوه من تلك النوافذ والقنوات الاجتماعية أن ينشطوا لمواجهة التدهور السلوكي واحتوائه وتحويله إلى المسار الإيجابي.

التربية قبل العقوبة

من الصعب على المرء أن يلاحظ أن العقاب في مجتمعاتنا له أجهزته القادرة على تنفيذه على أرض الواقع، ولكن إعادة تأهيل الإنسان إلى ممارسة حياته الطبيعية له أجهزة غير قادرة على الالتزام به.

وقد أصبحت المشروعات الوقائية أو العلاجية في منأى عن التنفيذ بعد أن آل أمرها لأن تكون حبيسة بين دفتي كتاب في جامعة عتيدة، أو بحث جيد الإعداد في دورية متخصصة، أو في ثنايا حديث محاضر جاد فكره بالكثير، وقلّ عدد مستمعيه فتضاءل الأثر من كلماته، مع تضاؤل الاحتفاء بأفكاره وآرائه، الأمر الذي يدفع باتجاه التساؤل حول مدى الجدوى من طرح الأفكار المتميزة، وليست هناك مساحة قبول نفسي، أو استعداد ذهني، أو إرادة مسبقة في استثمار الخبرة العلمية، وخلق مناخ يستوعبها ويتيح لها المجال للعمل على أرض الواقع.

وكم ألهبتنا محاضرة قيمة، أو شوقتنا دراسة متقدمة تستعرض أوجه القصور في العمل الاجتماعي وتقترح الآلية القادرة على تجسير الهوة بين الواقع وبين الأهداف المأمولة، ولكنها تبخرت مع آخر كلمة قالها المتحدث، واستقرت في الذاكرة المؤقتة لفترة وجيزة ثم تطايرت قبل أن تؤسس لها مكانا حيا في النفوس والعقول.

لذا نطالب بتفعيل العلاقة ما بين المؤسسات الاجتماعية والمدارس من جهة، وبين تلك المؤسسات والفتيات المستهدفات بالرعاية من جهة أخرى.

كما ندعو إلى توفير بنية اتصال فاعلة، وقادرة على تحقيق السيولة في المعلومات، والتدفق في توصيل الملاحظات حول الفتيات اللواتي يصدر منهن إخلال بالنظام العام وتسجل على سلوكهن ملاحظات تستدعي التريث والنظر.

بعيدا عن الأساليب التقليدية المتبعة في تلك الحالات من لجوء إلى الفصل المؤقت عن المدارس، وإيصال رسالة شديدة اللهجة إلى الأبوين، وما يتبعه من كتابة تعهد بعدم اختراق القواعد والنظم في المستقبل، ثمة عمل مهم ينتظر مؤسسات الرعاية الأسرية وهو أن يكون لديها مشروع متكامل يهدف إلى مد الجسور مع تلك الفئة من الفتيات وفق آلية عمل تتبنى الوصول إلى الفتاة في عقر دارها أو في مدرستها بدلا من الاكتفاء بتلقط أخبار العصيان، والتمرد القادم من خلف أسوار المدارس!!

السياسة التي يمكن التعويل عليها تتبنى التمرد على سياسة الانتظار،، وتنفيذ سياسة الباب المفتوح تجاه الأفكار الواعدة، ابتداء من التعرف على الفتاة، وعلى صندوق بريد الأسرة، ومروراً بإجراء مكالمات ودية معها تبادر بها العاملات بقسم العلاقات العامة في تلك المؤسسات.

وكذلك توجيه دعوات للاستضافة في ملتقيات ذات طابع عصري وجذاب، وأيضا الاهتمام بإرسال رسالة منتظمة عبر الإيميل الشخصي لتلك الفئة تحوي رسائل متنوعة تهدف إلى تحفيز ذهن الطالبة، وجذبها إلى أنشطة حديثة قادرة على تهذيب مشاعرها.

ومن الوسائل المقترحة كذلك إنشاء مقاهي الإنترنت في تلك المؤسسات على أن تتوافر ورش عمل تمهيدية للتعريف بأفضل الممارسات على الشبكة العنكبوتية، وأفضل مواقع البحث والتصفح بها.

إن ممارسة العصف الذهني وشحذ الجهاز العصبي وتنشيطه للإدلاء باقتراحات ذات جدوى، هو أمر ينبغي أن يكون معمولا به لدى كافة المؤسسات الاجتماعية المعنية بقضايا الشباب.